

بيان من المؤمن، ومن المسلم، ومن المجاهد، ومن المهاجر

روى الإمام أحمد في مسنده عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع: ((ألا أخبركم بالمؤمن؟ من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب)).

فهذا الحديث الذي هو من جملة وصايا النبي صلى الله عليه وسلم وتعليمه لأمته في حجة الوداع فيه بيان لكمال مسميات هذه الأسماء الجليلة: الإيمان والإسلام والجهاد والهجرة، وبيان للمستحقين لهذه الأسماء على الحقيقة الواجبة لهم، والتي يترتب عليها السعادة التامة في الدنيا والآخرة، وذكر لحدودها بكلام جامع شامل.

١- فالمؤمن من أمنه الناس على دماءهم وأموالهم، فإن الإيمان إذا تمكن في القلب، وامتلاء القلب به أوجب لصاحبه القيام بحقوق الإيمان التي من أهمها: رعاية الأمانات، والصدق في المعاملات، والورع عن ظلم الناس في دماءهم وأموالهم، ومن كان كذلك عرف الناس هذا منه وأمنوه على دماءهم وأموالهم ووثقوا به، لما يعلمون منه من مراعاة الأمانات، فإن رعاية الأمانة من أخص واجبات الإيمان كما قال صلى الله عليه وسلم: ((لا إيمان لمن لا أمانة له)).

٢- والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، وذلك أن الإسلام الحقيقي هو الاستسلام لله وتكميل عبوديته والقيام بحقوق المسلمين ولا يتم الإسلام حتى يحب للمسلمين ما يحب لنفسه، ولا يتحقق ذلك إلا بسلامتهم من شر لسانه وشر يده، فإن هذا أصل هذا الفرض الذي عليه المسلمون، فمن لم يسلم المسلمون من لسانه أو يده كيف يكون قائماً بالفرض الذي عليه لإخوانه المسلمين؟ ومن بسط في المسلمين يده ولسانه أذى وعدواناً أين هو من تحقيق الإسلام؟ فسلامتهم من شره القولية والفعلي عنوان على كمال إسلامه.

وفي هذا دلالة على أن المؤمن أعلى رتبة من المسلم، فإن من كان مأموماً على الدماء والأموال كان المسلمون يسلمون من لسانه ويده ولولا سلامتهم منه لما ائتمنوه، وليس كل من سلموا منه يكون مأموماً عندهم، فقد يترك أذاهم وهم لا يأمنون إليه خوفاً أن يكون ترك أذاهم لرغبة أو رهبة لا لإيمان في قلبه.

فسلم المسلم بأمر ظاهر وهو سلامة الناس منه، وفسر المؤمن بأمر باطن وهو أن يأمنوه على دماءهم وأموالهم وهذه الصفة أعلى من تلك.

٣- والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، وذلك أن النفس ميالة إلى الكسل عن الخيرات، أهارة بالسوء، سريعة التأثير عند المصائب، وتحتاج إلى صبر وجهاد في إلزامها طاعة الله، وثباتها عليها، ومجاهدتها عن معاصي الله، وردعها عنها، وجهادها على الصبر عند المصائب، وهذه هي الطاعات، امتثال الأمور واجتناب المحظور، والصبر على المقدور، فالمجاهد حقيقة من جاهد على هذه الأمور لتقوم بواجبها ووظيفتها.

وجهاد النفس أربع مراتب:

إحداها: أن يجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق الذي لا فلاح لها ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به، ومتمى فاتها علمه شقيت في الدارين.

الثانية: أن يجاهدها على العمل بعد علمه، وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها.

الثالثة: أن يجاهدها على الدعوة إليه وتعليمه من لا يعلمه، وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبيئات، ولا ينفعه علمه ولا ينجيه من عذاب الله.

الرابعة: أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله وأذى الخلق، ويحتمل ذلك كله لله، ذكر هذه المراتب العلامة ابن القيم رحمه الله (١).

وقد ثبت في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((أفضل الجهاد أن يجاهد الرجل نفسه وهواه)).

وإذا قصر المسلمون في جهاد أنفسهم ضعفوا عن جهاد أعدائهم، فيحصل بذلك ظهور لأعدائهم عليهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: ((وحيث ظهر الكفار فإنها ذلك لذنوب المسلمين التي أوجبت نقص إيمانهم، ثم إذا تابوا بتكميل إيمانهم نصرهم الله)) (٢). اهـ

E- والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب، وهذه الهجرة فرض عين على كل مسلم لا تسقط عن كل مكلف في كل حال من أحواله، فإن الله حرم على عباده انتهاك المحرمات والإقدام على المعاصي والذنوب، وأوجب عليهم الإقبال على طاعته واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم، وهي هجرة تتضمن (من) و(إلى) فيهاجر بقلبه من محبة غير الله إلى محبته، ومن عبودية غير الله إلى عبوديته، ومن خوف غير الله ورجائه والتوكل عليه إلى خوف الله ورجائه والتوكل عليه، ومن دعاء غير الله وسؤاله والخضوع له والاستكانة له إلى دعائه وسؤاله والخضوع له والذل له والاستكانة له. ومن غشيان الذنوب وارتكابها إلى التوبة منها، والإقبال على الله وحده خوفاً وطمعاً وخشوعاً وتذلاً. وقد ثبت في صحيح البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((المهاجر من هجر ما نهى الله عنه)). والله عز وجل نهى عن الشرك، وعن اتباع الأهواء، وعن فعل المعاصي والذنوب، فالمهاجر حقاً من هجر هذه الأمور وأقبل على الله وحده مخلصاً، ولنبيه صلى الله عليه وسلم متابعاً، وللذنوب والمعاصي مجانباً ومباعداً.

وعلى كل فهذا الحديث من قام بها دل عليه فقد قام بالدين كله: من سلم المسلمون من لسانه ويده، وأمنه الناس على دماءهم وأموالهم، وهجر ما نهى الله عنه، وجاهد نفسه على طاعة الله، فإنه لم يُبق من الخير الديني والدنيوي الظاهري والباطني شيئاً إلا فعله، ولا من الشر شيئاً إلا تركه، والله وحده الموفق (٣).

* * *

(١) زاد المعاد (٦/٣).

(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٦/٤٥٠).

(٣) ينظر بهجة قلوب الأبرار لابن سعدي (١٧-١٩).